في الأدب المصري

مجالس الأدب
في القرن الثامن عشر

بقلم رضوان بك
للأستاذ محمد فريد أبو حديد

قد اعتاد الناس سماعه أن يقول قائل : لا حيًّا الله أيام القرن الثامن عشر في مصر ! وقد لا يتورع القائل أن يرمي ذلك العهد بأقبح التهم وشنع الآراء : فيصفه تارة بالظلم ، وتارة بالظلمة ؛ وما أكثر ما نسمع الآذان ذكراه مصحوبة بنسمية لاذعة ، فلا يقال إلا أنه كعهد المماليك ، أو عهد ظلم العثمانيين . وليس في ذلك عجب ، فإن من كانوا قديماً لا يرون الماضي على حقيقته ، فهم إما أن يروه عصر أعظم من عصرهم لا يستطيع حاضرهم أن يجاريه في شيء ، وإما أن يروه عهداً دون عهدهم لا يرضون أن تقاس حال أيامهم به . والناس كالناس تختلف في الحظوظ وتتباين ، فكما أن بعض الناس يكتسب من الحمد فوق ما يستحق ، وينسب اليه من كريم الخلال ما ليس من طبعه ، فكذلك الأيام ، قد ينعت الناس بعض عصورها بما ليس من حقه ، وينسبون اليه من الفضائل أكثر مما يجدر به ، وكما أن بعض الناس قد يسلب جزاؤه ، وتجحد حسنته ، وينكر فضله ، فكذلك قد يظلم التاريخ عهداً من العهود ، فلا يقر له بفضل ، ولا يحجم في وصفه عن تهمة ، ولا يتعرض له إلا بالأذى : وقد كان عصر أمراء المصريين من هذه العصور المظلومة التي جحد التاريخ فضلها ، وأذاع مثالبها ، وأخفى مناقبها ، وصوَّرها صورة مشوهة بغيضة . ولسنا بسبيل بيان الأسباب التي حملت التاريخ على ذلك الظلم ، ولكنا نكتفي بأن نقول إن الأحياء قد يكون لهم نفع من اتهام الأموات ، وقد يعود عليهم بعض الخير من الافتراء على الجدود . ولا حاجة بنا إلى التطويل في دفع هذا الاتهام ولا في دفع هذا الافتراء ، فما في هذه الأطالة تحقيق للقصد . وحسبنا أن نصف مجلساً أدبياً في بعض هذه الأيام الماضية ، وللقارئ أن يحكم من هذا الوصف إذا كانت تلك الأيام النابرة جديرة بما يصفها به المتهمون المفترون :

* * *

كانت أمور مصر في منتصف القرن الثامن عشر قد خلصت إلى اثنين من الزعماء : أحدهما الأمير ابراهيم ، والآخر الأمير رضوان . وقد أصبحا صاحبي الأمر في البلاد لا ينازعهما إلا المنافسون في دخائل صدورهم ؛ وأما ظاهر الأمر فلم يكن لهما فيه شريك . حتى أن الباشا العثماني الذي كان يمثل السلطان لم يكن له إلى جانبهما أمر ولا نهي

ولقد كان لكل من هذين الأميرين متجه يتجه اليه في رياسته ، فكان ابراهيم صاحب السلطان ، وقائد الجيوش ، ومدبر السياسة ؛ على حين كان رضوان مؤلف القلوب ، وقبلة القصاد ؛ وكان الأميران على اختلاف اتجاههما متفقين متآلفين ، فقضيا في رياستهما سبع سنين ونيفاً

وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة ، ويخلع عليه الفن المصري رواءه وبهاءه ، وتجتمع في أبهائه هامات العصر من الأدباء والعلماء ، وقد كان بمصر حينئذ في الحق أدباء وعلماء ، على رغم من يتهم هذا العصر بالظلمة والانحطاط

هناك على ضفة الخليج المصري اشترى رضوان داراً من أحد أكابر التجار ، كانت واقعة على بركة الأزبكية ، وموضعها اليوم ما يلي حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك متنزهاً من متنزهات القاهرة المحبوبة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . وكان للأمير رضوان فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظرة بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استحدثها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة . وقد نسق الأمير قصريه أبدع تنسيق ، وجعل لهما حدائق فسيحة نقل اليها بديع الزهر والشجر ، وأقام في أركانها الجواسق الجميلة . وجعل في جوانب الحدائق مما يلي البركة قناطر لتجري المياه من تحتها ، واتخذ فوق تلك القناطر مجالس للنزهة والاسترواح . وأما داخل القصور فكانت القباب العالية المحلاة بذوب المسجد ، واللازورد ، والزجاج الملون ، وقد نقشت أعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها . وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب في أثناء الليل فتكاد تخطف الأبصار من بهائها ورواثها

وفي هذه الأبهاء التي تأخذ بمجامع القلوب كان يجتمع أدباء

العصر وأعيان العلماء يتسامرون فى حضرة الأمير المحبوب ، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر فى حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد . وكان من هؤلاء أديب العصر الأعظم قاسم بن عطاء الله المصرى ، وصديقه مصطفى أسعد الدمياطى ، وإلى جانبهما مجمع باهر من شيوخ وشبان ، بعضهم للجد والوقار كالشيخين الشبراوى والحفنى ، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الأنبوطى الهجاء

واجتمع مجلس الأدباء يوماً فى القصر ، وإذا بالأمير يسأل عن أحدهم فلا يجده . قال : « أين ابن الصلاحى ؟ » ولم يكد ينتهى من سؤاله حتى رد فى جانب البهو صوت جهورى ينشد :

شاق طرف السرور ظرف الربيع فتملى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء الـــطل من در قطره بالدموع
وغصون الرياض تخلع أثوا ب التدانى على الندىّ الخليع
فأنسنا بجمع إخوان صدق زان طبع الوفاء قدر الجميع
باصلاحى أرح فؤادك والبس من بشير اللقا قميص الرجوع

فالتفت الجلوس كلهم نحو القادم فاذا هو الذى كان يسأل الأمير عنه ؛ وصاح الشيخ عامر قائلا : « لقد ذكرنا القط ... » فضحك الجمع ولم يمتنع عن الضحك الأمير ، وجلس الأدباء بعضهم إلى بعض فى أنحاء البهو الأعظم من قصر رضوان ، وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصرى ، جوانبه من الخشب المخروط ، تكتنفه وتتخلله رسوم من العاج والآبنوس والصدف ، وقد كُسيت جوانب السرير بالحرير الملون البديع ، تتغير ألوانه فى ضوء المصابيح المتألقة كما تتغير الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام القرمزى الداكن .

واتجه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عطاء وأقبل عليه باسما وقال له : « ماذا جئت به اليوم يا ابن عطاء ؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار البستان ، فقلت فى نفسى لابد أنك متحفنا اليوم بشىء جديد » .

فابتسم الأديب وقال : « الحق ما تقول أيها الأمير ، دامت نعمتك ، وأقر الله أعيننا ببقائك وعلو دولتك »

فقال له الأمير : « إذن فهات ، وقد أحضرت لك الشيخ عامر الأنبوطى عمداً »

فصاح الأديب ابن عطاء وهو باسم وقال : « أعوذ بجاهك منه أيها الأمير ! »

فصاح عند ذلك الشيخ متدخلا فى الحديث « وماذا تخشى يا ابن عطاء ؟ أليس لكل منا فنه ؟ »

فنظر إليه ابن عطاء وهو باسط يديه بسطة الرجاء وقال : « لقد عذت بكنف الأمير من لسانك ، فدونك سواى إذا شئت »

فقال الأمير ضاحكا : « إذن أنا مجيره منك يا شيخ عامر » وضحك الشيخ عامر وقال : « إذا شئت أيها الأمير ، فلقد والله قضيت الليلة الماضية أشحذ لسانى وذهنى لنزاله . وقد والله فوّتّ علىّ فريستى »

فضحك النَّدىُّ وأنصت بعد لأى لمدحة الأديب ابن عطاء : فأنشأ يقول :

بكت بدمع الطل عين النرجس فأضحكت ثغر الأقاح الأنفس

واستمر فى مزدوجته يصف البستان حيناً والماء حيناً . فيقول مها :

حديقة بها السرور محدق جدولها مسلسل منطاق
فى جوه نجم الزهور مشرق والبان ظله غدا يسترق
من وجنة الماء احمرار الورد

ثم تخلص إلى ذكر الحب على سنة الأقدمين من الشعراء ، وتخلص من ذلك إلى مدح رضوان فقال :

دع علة التعليل بالأمانى واقصد حمى الموصوف بالأمان
وانف لباس البؤس والأحزان واسأل عن النعيم من رضوان
سَلْ ما تريد ، لا تخف من رد
مليكنا جلت لنا أوصافه لم يبد فى غير العطا اسرافه
ضياؤه قرت به أضيافه تفعل فى جيش العدى أسيافه
ما يفعل الصرصر يوم الحصد

إلى أن أكمل مدحته بين اهتزاز الأمير وإعجاب السامعين ، لولا ابتسامة عابثة من الشيخ عامر وهو ينظر إلى الأمير .

فقال له الأمير : « وما تستطيع أن تقول فى هذا يا شيخ الهجائين ؟ »

فقال الشيخ : « لا أقول فى هذا شيئاً مادام فيه ذكرك ومديحك أيها الأمير : ولكنه لو لم يستعذ بك وجدنى قائلا »

فتحرك الأديب ابن عطاء حركة غضب وأنفة وقال :

« أيسمح لى الأمير أن أرد عليه جواره إلى حين ، لا حرمنى الله جوارك ، فان هذا الشيخ قد ظن أننى أتوارى منه ضعفاً » ؛

فتبسم الأمير وقال : « نازله بقصيدة أخرى جديدة إذا شئت »

فصاح الشيخ عامر وظنها فرصة فى ابن عطاء فقال : « أصبت القصد لا زلت موفقاً أيها الأمير »

فاهتز ابن عطاء وقال : « نعم إذا شئت أيها الأمير ، إن عفوى خير من اعدادى ، وإذا شئت قلت »

فأذن له الأمير وتطلع الحاضرون إلى الأديب يظنون أنه سيسف ويتعرض لطعنات منازله الهجّاء . فقال ابن عطاء :

ترك الهجرَ ووافى كرما بعد ما كان لعهدى قد نَسى
أهيف القد كغصن عَلِما من نسيم الروض فنّ الميَس

فاهتز الأمير وقال : « هيه يا ابن عطاء ! »

فسرت فى الشاعر هزة جديدة واستمر يقول :

مفرد فى الحسن ثنى معجبا ألف القد بشكل حَسَن
غصن بان هزه ريح الصبا خده يزهو على الورد الجنى
ساحر الجفن أرانا عجباً أسره للأسد حال الوسن

وما زال بالسمط وراء السمط ، والعقد من بعد العقد ، حتى تخلص إلى مدح الأمير على عادته إلى أن ختم موشحه قائلا :

كفُّه الغيث على الناس همى فأعاد الخصب بعد اليَبَس
أصبح الدهر به مبتسماً وهو فى فيـــه محل اللعَس

فنزل اليـه الأمير من سريره وعانقه وقال له : « بمثلك تزدان مجالس الملوك يا ابن عطاء ، ووالله لو لم أجد من المال إلا قوت يومى لما وجدت له محلاً أحب الى من إهدائه اليك »

ثم التفت الى الشيخ عامر وقال :

« لقد أنطقه الولاء أيها الشيخ فماذا تستطيع أن تقول ؟

فقام اليه الشيخ الهجاء وقبل رأسه وقال :

« يا أمير الشعر قد دِنّا اليك »

فصـاح الشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى من جانب المجلس وقال :

« أما الأمارة فلا نراها فى الشعر . إن هى إلا فى تلك السياسة ، وهذه الدولة والرياسة . فدع عنك التعرض لهذا ، فما أظنك مصيباً من الجائزة شيئاً »

فضحك الحاضرون شماتة فى الهجّاء الذى لم يترك من أهل الشعر ولا من أهل العلم أحداً إلا وتره وحرك حقده

وكان الشيخ الهجاء قد انكسر عند ذلك ، غير أنه لم يرض أن يترك دأبه من الوخز فقال ناظراً الى الشاعر الآخر :

« وما لك أنت ؟ لكأنى بك قد تحركت غيرتك . غير أنك لست بمستطيع اليوم أن تقول شيئاً . فقد ملك اليوم ابن عطاء » . فقال الأمير مدافعاً عن الدمياطى :

« ومالك أنت به يا شيخ عامر ؟ أنسيت مدحته العظمى ؟ أنسيت مدامته الأرجوانية فى المقامة الرضوانية ؟ لقد ينقطع عمر الكثيرين دون مثلها »

فقال الشيخ عامر ولم يثنه دفاع الأمير :

« إن هى إلا بيضة الديك » وأشار الى الشاعر ، ثم صاح كما يصيح الديكة فضحك الجلوس من كلمته وصيحته . واحمر وجه الشاعر الدمياطى ، وقال غاضباً :

« لو شئت الهجاء لهجوتك ، ولكنك أقل من أن أهجوك ، فاسمع إذن مدحتى فى زين الملوك وأقر بعجزك وصغارك »

ثم اندفع يقول :

بشرى الربيع لقد وافت بشائره وفاح دونك فى الآفاق عاطره
ومالت القضب بالأطيار مطربة وقد تبسم من عجب أزاهره
فسر مقدمه الحالى أخا شجن يهيجه من معانى الدوح ناضره

ثم أوغل فى وصف الربيع وزهره ونسيمه وعطره ، فأبدع وأطرب إلى أن تخلص من وصفه الممتع إلى مدح الأمير فقال :

والزهر من فرح أهدى النثار بها لما سما الورد واستعلت مظاهره
حكى بمنظره الحالى ومخبره صفات رضوانا السامى زواهره
أمير مجـــد لنا تتلى مدائحه مدى الزمان كما تروى مآثره
تخاله الليث والمريخ فى يده إذا بدا جائلاً والسيف شاهره
روض نضير ولكن مثمر أبدا غيث ولكن ندى عمت مواطره

وما زال ينتقل فى ذلك المدح من معنى إلى معنى إلى أن قال :

خذ من زمانك ما أغناك معتنما وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
ودم بروض العلا والعز منبسطاً بعطرات الهنا يشدوك طائره

فصفق الأمير طرباً عند ما بلغ الشاعر ذلك ، وصاح بالشيخ عامر يقول :

« عزمت عليك يا شيخ إلا ما قمت إليه وقبلت رأسه كما فعلت بالأديب ابن عطاء ، فما هو بدونه مرتبة فى الشعر ولا فى الولاء . ولكم جميعاً منى أسنى جائزة »

فقام الشيخ إلى الشاعر وقبل رأسه وهو يقول :

« ومالكم لا تشكرون لى وخزاتى . أيها الأمير أكنا نظفر منهما بهاتين الدرتين بغير وخزات لسانى ؟ »

فضحك الأمير والحاضرون منه وقال رضوان :

« أتذكر البيت القديم يا شيخ عامر ؟ لقد قلته لى منذ أيام فلولا أن النار تحرق ما حولها ما شم أحد رائحة ال . . . . »

فقال الشيخ منشداً البيت :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عَرف العود

فقال الأمير « هو هذا . هو هذا . لقد حفظت معناه ولكنى لا أقوى على حفظ لفظه . » ، ثم نظر إلى مملوك واقف إلى يمينه ، وقد وضع يديه على صدره تأدباً وقال له :

« يا محمود ، اذهب إلى خازندارى ، وبلغه أمرى باحضار ما اعتدت بذله فى مثل هذا اليوم »

ولم يخرج أحد من الحاضرين فى ذلك المجلس بغير ما يرضيه ، غير أن الشيخ الحفنى أبى أن يأخذ شيئاً من الأمير ، بل قبل الأمير يده وسأله الدعاء ، وخرج الشيخ الوقور وهو يدعو للأمير بالتوفيق والهداية »

وكان الشاعر ابن الصلاحى فى كل ذلك متواضعاً ساكناً لم يثر لغيرة ، ولم يتقدم لمنافسة ، بل كان يطرب كما يطرب الحضور ويعجب كما يعجبون ، ولما أوشك عقد الجمع أن ينفرط رفع عقيرته فأنشد مرتجلاً :

يا مساء السرور كيف اختلسنا فيك أنسا كانما هو شك
قد أنسنا فى فتحه بالتدانى ودهانا ختامه وهو مسك

ثم سار وهو يقول مرتجلاً :

إلى القبة الفيحاء سرنا فسرّنا ربيع المنى فى ثغر طلعتها الغرّا
أنسنا بها من كل بدر ولا نرى
عجيباً طلوع البدر فى القبة الخضرا

فنظر إليه الأمير رضوان مبتسماً وقال : « هيه يا ابن الصلاحى لقد فوتّ علينا الليلة بغير إنشاد منك » فقال الشاعر باسماً وهو ناظر إلى الأرض « دمت للملك يا مليك الزمان فالعود أحمد » ، ثم حيا الأمير وسار فى أثر صحبه خارجاً

محمد فريد أبو حديد

الغزو الاقتصادى اليابانى

لأسواق العالم

وأثره فى الاقتصاد المصرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

استطاع الغزو الاقتصادى اليابانى أن يحدث أثره فى معظم الأسواق القديمة بسرعة مدهشة . وقد قال مسيو هيروتا وزير الخارجية اليابانية فى إحدى تصريحاته الأخيرة إن هذه النهضة الصناعية والتجارية التى تضطلع بها اليابان إنما هى ثمرة العمل والمثابرة ، ولا تعتمد على وسائل غير شريفة ، وليس وراءها أية نزعة عدائية . وقد بينا فى مقالنا السابق ظرفاً من الظروف والأحوال الاقتصادية المشجعة التى تعمل فيها الصناعة اليابانية ، ولكن اليابان لا تستطيع بمثل هذه التأكيدات أن تهدئ ما يبثه غزوها الاقتصادى فى معظم الدول الصناعية والتجارية من عوامل الخوف على مستقبلها الاقتصادى . ويجب أن نذكر أن النفوذ الاقتصادى إحدى الوسائل القوية التى يعتمد عليها الاستعمار الغربى فى توطيد نفوذه وسلطانه فى أفريقيا وآسيا ، وأنه يكون غالباً طليعة الفتح السياسى وذريعته ، فاذا اضطربت دعائم هذا النفوذ الاقتصادى ، اضطربت دعائم السيادة الاستعمارية التى تقوم عليه ؛ والتحرير الاقتصادى دعامة قوية للعمل فى سبيل التحرير السياسى . فالدول الاستعمارية التى يزعجها الغزو اليابانى لا تقف فى مقاومته عند تقدير الاحتمالات الاقتصادية وحدها ، ولكنها تنظر الى آثاره من وجهة أشد خطراً وأبعد مدى وهى وجهة مستقبلها الاستعمارى

ولا ريب أن بريطانيا العظمى فى مقدمة هذه الدول ، بل هى أولها وأسبقها الى التأثر بهذه المنافسة الخطرة التى تهدد نفوذها الاقتصادى والاستعمارى فى معظم أرجاء امبراطوريتها الشاسعة ، وتخلق لها مشكلة امبراطورية فى منتهى الخطورة . ذلك أن بريطانيا العظمى تستمد كثيراً من أسباب غناها وقوتها وعظمتها من نفوذها الاقتصادى وتفوقها الصناعى والتجارى ؛ وهذا النفوذ